التصوف الاسلامي الصحيح

(فصل من كتاب مدارج السالكين ، بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين »)

للامام العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى

في مشاهد الخلق في المعصية وهي ثلاثة عشر مشهدا (١) : مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة ـ ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة ـ ومشهد الجبر ـ ومشهد القدر ـ ومشهد الحكمة ـ ومشهد التوفيق والخذلان ـ ومشهد التوحيد ـ ومشهد الاسماء والصفات ـ ومشهد الايمان ونسد شواهده ـ ومشهد الرحمة ـ ومشهد العجز والضعف ـ ومشهد الذل والافتقار ـ ومشهد المحبة والعبودية . فالاربعة الاول للمنحرفين ، والثمانية البواقي لاهل الاستقامة . واعلاها المشهد العاشر . وهذا الفصل من أجل فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد ، وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر ، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه ، الا ما ذكرناه في كتابنا المسمى بسفر الهجرتين ، في طريق السعادتين

﴿ فصل ﴾

فأما (مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة) فمشهد الجهال ، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان الا في اعتدال القامة ونطق اللسان ، ليس همهم الا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت اليها . فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانيه ، لم تترق عنها الى درجة الانسانية ، فضلا عن درجة الملائكة . فهؤلاء حالهم اخس من ان تذكر ، وهم في

{١} المعنى المراد من لفظ المشهد هو ما يغلب على اعتقاد الانسان أو وجدانه وشعوره في معصيته أو معصية غيره ، ومثله كل عامل في عمله ، ويعبر بعض الناس الآن عن مثل هذا المعنى باللاحظة . فيقال على عرفهم : إن العامي الجاهل لا يلاحظ في المعصية الا إرضاء شهوته . ولكن الطبيب الجاهل يلاحظ معنى آخر مع قصد الشهوة وهو ان هذا العمل من الوظائف الطبيعية لبعض اعضاء الجسم . وعلى ذلك فقس

أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على اخلاقها وطباعها

(فمنهم) من نفسه كلبية لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها وحماها من سائر الكلاب ، ونبح كل كلب يدنو منها ، فلا تقربها الكلاب الا على نزه منه وغلبة ، ولا يسمح لكلب بشيء منها ، وهمه شبع بطنه من أي طعام اتفق : ميتة او مذكى ، خبيث او طيب . ولا يستحي من قبيح ، ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ان اطعمته بعض بدنه ودار حولك ، وان منعته هرّك ونبحك .

(ومنهم) من نفسه حمارية لم تخلق الا للكد والعلف ، كلما زيد في علفه زيد في كده ، ابكم الحيوان واقله بصيرة . ولهذا مثل الله سبحانه وتعالى به من حمله كتابه فلم يعرفه معرفة ولا فقها ولا عملا ، ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وأخلد الى الارض واتبع هواه . وفي هذين المثلين اسرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها .

(ومنهم) من نفسه سبعية غضبية همته العدوان على الناس وقهرهم بما وصلت اليه قدرته ، طبيعته تقتضي ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه .

(ومنهم) من نفسه فاريّة ، فاسق بطبعه ، مفسد لما جاوره ، تسبيحه بلسان الحال : سبحان من خلقه للفساد .

(ومنهم) من نفسه على نفوس ذوات السموم والحمات ، كالحية والعقرب وغيرها ، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه فيدخل الرجل القبر ، والجمل القدر ، والعين وحدها لم تفعل شيئا وانما النفس الخبيثة السمية تكيفت بكيفية غضبية مع شدة حسد واعجاب ، وقابلت العين على غرة منه وغفلة ، وهو اعزل من سلاحه ، فلدغته ، كالحية التي تنظر الى موضع مكشوف من بدن الانسان فتنهشه ، فإما عطب وإما اذى . ولهذا لا يتوقف اذى العائن على الرؤية والمشاهدة ، بل اذا وصف له الشيء الغائب عنه وصل اليه اذاه . والذنب لجهل العين وغفلته وغرته عن حمل سلاحه كل وقت . فالعائن لا يؤثر في شاكي السلاح ، كالحية اذا قابلت درعا سابغا على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف ، فحق على من أراد حفظ نفسه وحمايتها أن لا يزال متدرعا متحصنا ، لابسا اداة الحرب ، مواظبا على أوراد التعوذات

والتحصينات النبوية التي في السنة والتي في القرآن (١) .

وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام عند الانسان وفي داره أوأنها تحاربه . وهو كما اعتمدوه . وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة . فكان تأويلها مطابقا لاقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أحد بقرا تنحر ، فكان ما أصيب من المؤمنين بنحر الكفار ، فان البقر أنفع الحيوان للارض وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع والذل (بكسر الذال) فانها ذلول منقادة غير أبية ، والجواميس كبارهم ورؤساؤهم (٢) ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكا نقره ثلاث نقرات ، فكان طعن أبي لؤلؤة له . والديك رجل أعجمي شرير .

ومن الناس من طبعه طبع خنزير بمر بالطيبات فلا يلوي عليها ، فاذا قام الانسان عن رجيعه قمه . وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوي ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه ، فاذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها فحملها فاكهته ونقله

(ومنهم) من هو على طبيعة الطاوس ليس له الا التطاوس والتزين بالريش وما دون ذلك شيء (ومنهم) من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان وأغلظه كبدا

(ومنهم) من هو على طبيعة الدب أبكم خبيث ، وعلى طبيعة القرد (٣)

أحمد طبائع الحيوانات طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسا وأكرمها طبعا ، وكذلك الغنم ، وكل من ألف ضربا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه ، فان تغذى بلحمه كان الشبه أقوى . فان الغاذي شبيه بالمتغذي (٤) . ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير لما يورث آكله (٥) من شبه

(١) حذفنا من هذا الموضع بحثا وجيزا في عقاب من ثبت أنه يؤدي بغيته ، وأنه ان قتل بالعين لا يقتل بالسيف لان الجزاء من جنس العمل

(٢) أي كبار الناس النافعين ورؤساؤهم . أي تعبير رؤيتها في المنام بذلك

(٣) أي في إفساد كل ما تصل اليه يده (٤) وفي نسخة « المتغذي »

(٥) وفي نسخة « أكلها »

نفوسها بها والله أعلم . والمقصود أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة

﴿ فصل ﴾

(المشهد الثاني مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة)

كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء الذين يشهدون ان ذلك من لوازم الخلقة والطبيعة الانسانية ، وان تركيب الانسان من الطبائع الاربع وامتزاجها واختلاطها كما يقتضي بغي بعضها على بعض وخروجه عن الاعتدال بحسب اختلاف هذه الاخلاط ، فكذلك تركيبه من البدن والنفس والطبيعة والاخلاط الحيوانية يقتضاه اثر هذه الخلقة ورسوم تلك الطبيعة ، ولا تقهر الا بقاهر إما من نفسه واما من خارج عنه . وأكثر النوع الانساني ليس له قاهر من نفسه ، فاحتياجه الى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة ولاية ينتظم بها أمره ضرورية (١) كحاجته الى مصالحه من الطعام والشراب واللباس . وعند هؤلاء ان العاقل متى كان له وازع من نفسه قاهر لم يحتج الى أمر غيره ونهيه وضبطه (٢) . فشهد هؤلاء من حركات النفس الاختيارية الموجبة للجنايات ، كشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية الموجبة للتغيرات (٣) وليس لهم مشهد وراء ذلك .

﴿ فصل ﴾

(المشهد الثالث مشهد أصحاب الجبر)

وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم ، وانها واقعة بغير قدرتهم ، بل لا يشهدون أنها أفعالهم البتة . ويقولون : ان أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر ، وان الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه ، وانه آلة محضة ، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح وحركات الاشجار . وهؤلاء اذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه ، وقد يغلون في ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعات خيرها وشرها ،

(١) كان الظاهر أي يقال « ضروري » لانه خبر قوله فاحتياجه

(٢) كذا (٣) وفي نسخة التغيرات

لموافقتها المشيئة والقدر . ويقولون : كما أن موافقة الامر طاعة ، فموافقة المشيئة طاعة . كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلا على أمره بها ورضاه .

وهؤلاء شر من القدرية النفاة ، وأشد عداوة لله ، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه ، حتى ان من هؤلاء من يعتذر عن ابليس ويتوجع له ويقيم عذره بجهده ، وينسب ربه تعالى الى ظلمه بلسان الحال والمقال ، ويقول : ما ذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه ؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وارادته منه ؟ ثم كيف يمكنه السجود وهو الذي منعه منه وحال بينه و بينه ؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله الا محسنا ؟ ولكن :

اذا كان المحب قليل حظ فما حسناته الا ذنوب

وهؤلاء أعداء الله حقا ، وأولياء ابليس واحباؤه واخوانه . واذا ناح منهم نائح على ابليس رأيت من البكاء والحنين امرا عجيبا ، ورأيت من تظلم الاقدار ، واتهام الجبار ، ما يبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم ، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه . فهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخ الاسلام ابن تيمية في تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم الى النار طرا فرقة القدرية

﴿ فصل ﴾

(المشهد الرابع مشهد القدرية النفاة)

ويشهدون أن هذه الجنايات والذنوب هم الذين أحدثوها ، وأنها واقعة بمشيئتهم دون مشيئة الله تعالى ، وأن الله لم يقدر ذلك عليهم ولم يكتبه ولا شاءه ولا خلق افعالهم ، وأنه لا يقدر أن يهدي احدا ولا يضله الا بمجرد البيان ، لا أنه يلهمه الهدى والضلال ، والفجور والتقوى ، فيجعل ذلك في قلبه . ويشهدون انه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه ، وأنه يشاء ما لا يكون ، وان العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله . فالمعاصي والذنوب خلقهم وموجب مشيئتهم ، لا أنها خلق الله

ولا تتعلق بمشيئته . وهم لذلك ممحوسو الحظ جدا من الاستعانة بالله والتوكل عليه والاعتصام به ، وسؤاله ان يهديهم ، وان يثبت قلوبهم وان لا يزيغها ، وأن يوفقهم لمرضاته ويجنبهم معصيته. اذ هذا كله واقع بهم وعين أفعالهم لا يدخل تحت مشيئة الرب.

والشيطان قد رضي منهم بهذا القدر ، فلا يؤزهم إلى المعاصي ذلك الأز ، ولا يزعجهم اليها ذلك الإزعاج . وله في ذلك غرضان مهمان (أحدهما) ان يقرر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة ، وأنكم تاركون الذنوب (١) والكبائر التي يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الامر مفوض اليكم واقع بكم ، وأنكم العاصمون لانفسكم المانعون لها من المعصية (الغرض الثاني) أنه يصطاد على أيديهم الجهال ، فاذا رأوهم أهل عبادة وزهادة وتورع عن المعاصي وتعظيم لها قالوا : هؤلاء هم اهل الحق. والبدعة آثر عنده واحب اليه من المعصية، فاذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على ايديهم ، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها في اعينهم وقلوبهم ولا يكشف هذه الحقائق الا ارباب البصائر .

﴿ فصل ﴾

(المشهد الخامس وهو احد مشاهد اهل الاستقامة : مشهد الحكمة)

وهو مشهد حكمة الله في تقديره على عبده مايبغضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه ، وانه لو شاء لعصمه منه ، وحال بينه وبينه ، وانه سبحانه لا يعصى قسرا ، وانه لا يكون في العالم شيء الا بمشيئته (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

وهؤلاء يشهدون ان الله سبحانه لم يخلق شيئا عبثا ولا سدى ، وانه له الحكمة البالغة في كل ماقدره وقضاه من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الاحاطة بكنهها ، وتكل الالسن عن التعبير عنها ، فمصدر قضائه وقدره لما يبغضه ويسخطه اسمه الحكيم الذي بهرت حكمته الالباب ، وقد قال تعالى للملائكته لما قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فاجابهم سبحانه بقوله (اني اعلم ما لا تعلمون) فلله سبحانه في ظهور المعاصي

(١) وفي نسخة «تاركو الذنوب»

والذنوب والجرائم وترتب آثارها من الآيات والحكم ، وانواع التعرفات الى خلقه ، وتنويع آياته ، ودلائل ربوبيته ووحدانيته ، والهيته وحكمته وعزته ، وتمام ملكه وكمال قدرته ، واحاطة علمه ، ما يشهده أولو البصائر عيانا ببصائر قلوبهم ، فيقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !) ان هي الا حكمتك الباهرة وآياتك الظاهرة

وفي كل تحريكة وتسكينة ابدا شاهد

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

فكم من آية في الارض بينة دالة على الله وعلى صدق رسله وعلى ان لقاءه حق ، كان سببها معاصي بني آدم وذنوبهم ، كآيته في اغراق قوم نوح ، وعلو الماء على رءوس الجبال ، حتى اغرق جميع اهل الارض ، ونجى اولياءه واهل معرفته وتوحيده . فكم في ذلك من آية وعبرة ، ودلالة باقية على ممر الدهور ؟ وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود . وكم له من آية في فرعون وقومه من حين بعث موسى اليهم ؟ بل قبل مبعثه الى حين إغراقهم ، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب . وفي التوراة ان الله تعالى قال لموسى : اذهب الى فرعون فاني سأقسي قلبه وامنعه عن(١) الايمان لاظهر آياتي وعجائبي بمصر . وكذلك فعل سبحانه فاظهر من آياته وعجائبه بسبب ذنوب فرعون وقومه ما اظهر . وكذلك اظهاره سبحانه ما اظهر من جعل النار بردا وسلاما على ابراهيم ، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم ، والقائهم له في النار ، حتى صارت تلك آية ، وحتى نال ابراهيم ما نال من كمال الخلة .

وكذلك ماحصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفى عند الله والوجاهة عنده بسبب صبرهم على أذى قومهم وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم . وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والاولياء والاصفياء من بني آدم ، بسبب صبرهم على أذى بني آدم من أهل المعاصي والظلم ومجاهدتهم في الله ، وتحملهم لأجله من اعدائه ماهو بعينه وعلمه ، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات . — الى غير ذلك من المصالح والحكم التي وجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم ، وكان من سببها تقدير ما يبغضه الله ويسخطه ، وكان ذلك محض الحكمة ، لما يترتب عليه مما هو أحب اليه وآثر عنده

(١) وفي نسخة « من »

من فوته بتقدير عدم المعصية . فحصول هذا المحبوب العظيم ، أحب اليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط ، فان فواته وعدمه وان كانت محبوباً له لكن حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض احب اليه ، وفوات هذا المحبوب ، اكره اليه من فوات ذلك المكروه المسخوط ، وكمال حكمته تقتضي حصول أحب الامرين اليه بفوات ادنى المحبوبين ، وان لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه . وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا ، كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها ، والملزومات بدون لوازمها ، مما تمنعه حكمة الله وكمال قدرته وربوبيته .

ويكفي من هذا مثال واحد وهو أنه لولا المعصية من أبي البشر بأكله من الشجرة لما ترتب على ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى ، من امتحان خلقه وتكليفهم ، وارسال رسله ، وانزال كتبه ، واظهار آياته وعجائبه ، وتنويعها وتصريفها ، واكرام أوليائه ، واهانة أعدائه ، وظهور عدله وفضله وعزته وانتقامه ، وعفوه ومغفرته ، وصفحه وحلمه ، وظهور من يعبده ويحبه ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان . فلو قدر أن آدم لم يأكل من الشجرة ولم يخرج من الجنة هو وأولاده ، لم يكن شيء من تلك ، ولا ظهر من القوة الى الفعل ما كان كامناً في قلب ابليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة ، ولم يتميز خبيث الخلق من طيبه ، ولم تتم المملكة حيث لم يكن هنالك إكرام وثواب ، وعقوبة واهانة ، ودار سعادة وفضل ، ودار شقاوة وعدل .

وكم في تسليط أوليائه على أعدائه ، وتسليط اعدائه على اوليائه ، والجمع بينهما في دار واحدة ، وابتلاء بعضهم ببعض ، من حكمة بالغة ، ونعمة سابغة ؟ وكم في طيها من حصول محبوب للرب ، وحمد له من أهل سمواته وارضه ، وخضوع له وتذلل ، وتعبد وخشية وافتقار اليه ، وانكسار بين يديه ؟ أن لا يجعلهم من أعدائه ، إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم ، واعراضه عنهم ، ومقته لهم ، وما أعد لهم من العذاب . وكل ذلك بمشيئته وإرادته ، وتصرفه في مملكته ، فاولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون ، على أشد وجل وأعظم مخافة وأتم انكسار . فاذا رأت

الملائكة إبليس وماجرى له، وهاروت وماروت، وضمت رءوسها بين يدي الرب خضوعا لعظمته، واستكانة لعزته، وخشية من ابعاده وطرده، وتذللا لهيبته، وافتقارا الى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منته عليهم، واحسانه اليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، اذا شاهدوا أحوال اعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم، ازدادوا له خضوعا وذلاً، وافتقارا وانكسارا، وبه استعانة، واليه إنابة، وعليه توكلا، وفيه رغبة، ومنه رهبة، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه الا اليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه الا هو، ولا ينجيهم من سخطه الا مرضاته، فالفضل بيده أولا وآخرا

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه فيطامه على عجائب من حكمته لاتبلغها العبارة، ولا تناولها الصفة. وأما حظ العبد في نفسه ومايخصه من شهود هذه الحكمة فبحسب استعداده وقوة بصيرته، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك نصيب معلوم، ومقام لايتعداه ولا يتخطاه (١)

(١) بقي من بيان حكمة الله تعالى في تقدير الكفر والمعاصي كلها ضرورية لايتم بدونها. وهي معنى ذلك التقدير، وكونه لا دلالة فيه ولا اقتضاء للجبر والاكراه على الفعل. وذلك انه تعالى خلق الناس مختارين في أفعالهم، يعملونها بارادتهم، حسب علمهم أو ظنهم بأن فعل كذا أو تركه خير لهم. فكل عمل من أعمالهم حلقة من سلسلة الاسباب والمسببات قبله حلقة الاختيار، وهذا الترتيب هو التقدير، فالقدر جعل المسببات على قدر الاسباب، وانتظام الجميع في سلسلة واحدة. وضده الخلق الأنف الذي هو مذهب القدرية. ومعناه ان الله تعالى يخلق كل شيء يقع في الكون ابتداء واستئنافا لا يكون شيء من الحوادث مبنيا على تقدير ونظام سابق، تكون فيه الاسباب على قدر المسببات، والنتائج اثراً لترتيب المقدمات. فكل مخلوق له علم وارادة واختيار يطيع او يعصي باختياره الذي هو من قدر الله، ولا يخلق الله كل عمل يصدر منه خلقا مستأنفا كما يزعم منكرو القدر العميان. وله في هذا التقدير حكم كثيرة أشار المصنف الى طائفة منها، والله عليم حكيم

﴿ فصل ﴾

(المشهد السادس مشهد التوحيد)

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا تتحرك ذرة الا بإذنه ، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته ، وانه ما من قلب الا وهو بين أصابعه ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء ان يزيغه ازاغه . فالقلوب بيده وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف اراد ، وأنه هو الذي آتى نفوس المؤمنين تقواها ، وهو الذي هداها وزكاها ، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له » يهدي من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته . هذا فضله وعطاؤه وما فضل الكريم بممنون (١) وهذا عدله وقضاؤه (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون)

قال ابن عباس : الايمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده . وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) علما وحالا ، فيثبت قدم العبد في توحيده (٢) الربوبية ، ثم يرقى منه صاعدا الى توحيد الالهية ، فانه اذا تيقن أن الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاء ، كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذي يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء ، وانه لا موفق الا من وفقه وأعانه ، ولا مخذول الا من خذله وأهانه وتخلى عنه ، وان اصح القلوب وأسلمها وأقومها ، وأرقها وأصفاها ، وأشدها وألينها ، من اتخذه وحده إلها ومعبودا ، فكان أحب اليه من كل ماسواه ، واخوف عنده من كل ماسواه ، وأرجى له من كل ماسواه ، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب ، فتنساق المحابّ تبعا لها كما ينساق الجيش تبعا للسلطان ، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات ، فتنساق المخاوف كلها تبعا لخوفه ، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء ، فينساق كل رجاء تبعا لرجائه .

---

(١) وفي نسخة بزيادة « اي مقطوع » وهو تفسير لممنون (٢) وفي نسخة « توحيد » بدون هاء

فهذا علامة توحيد الآلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل اليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الالهية توحيدُ الربوبية (١) فان أول ما يتعلق القلب (٢) بتوحيد الربوبية ثم يرتقي الى توحيد الالهية، كما يدعو سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد الى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ويقررهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن: الله. فأنى يؤفكون؟) أي فمن أين يصرفون عن شهادة ان لا اله الا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون انه لا رب غيره ولا خالق سواه (٣) وكذلك قوله تعالى (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله. قل أفلا تذكرون؟) فتعلمون أنه اذا كان وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده الههم ومعبودهم، فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ * قل: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟) ـ الآيات. وهكذا قوله في سورة النمل (قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أمّا يشركون؟ أمّن خلق السموات والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم ان تنبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون) الى آخر الآيات. يحتج عليهم بأن من فعل هذا وحده، فهو الإله وحده، فان كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وان لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه الها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل، فلابد من الجواب بلا، فاذا لم يكن معه اله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم ان إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة باقراركم وشهادتكم. ومن قال: المعنى هل مع الله اله آخر؟ من غير أن

(١) وبعبارة اخرى توحيد الربوبية، باب يدخل منه الى توحيد الالهية.
(٢) وفي نسخة «العبد» (٣) وفي نسخة «وانه لا خالق سواه»

يكون المعنى « فعل » فقوله ضعيف لوجهين (أحدهما) أنهم كانوا يقولون : مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك (الثاني) أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل افحامهم واقامة الحجة عليهم الا بهذا التقدير، أي فاذا كنتم تقولون : انه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله ، فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئا وهو عاجز؟ وهذا كقوله (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) وقوله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) وقوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق؟) وقوله (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) وقوله (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) وهو كثير في القرآن وبه تتم الحجة كما تبين .

والمقصود أن العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه الا هو، ولا سبيل الى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول الى مرضاته الا بتوفيقه، فموارد الامور كلها منه ومصادرها اليه، وازمة التوفيق جميعها بيديه ، فلا مستعان للعباد الا به ، ولا متكل الا عليه(١) كما قال سميه خطيب الانبياء (وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)

﴿ فصل ﴾

(المشهد السابع مشهد التوفيق والخذلان)

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه ، ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد الى شهوده وانتفاعه به . وقد أجمع العارفون بالله ان التوفيق هو ان لا يكلك الله الى نفسك(٢)

(١) أي ان الذي يدرك حقيقة معنى القدر يعلم ان ما آتاه الله تعالى إياه من هدايات الحواس والعقل والوجدان ، وما يصل اليه علمه المكتسب بها والضروري الذي هو أقوى منه ، كل ذلك لا يكفي لتصريف ارادته واختياره دائما فيما هو خير له ، فانه مهما اتسع علمه واختياره يختار لنفسه أحيانا كثيرة ما هو شر له في دينه ودنياه وعاجل امره وآجله، فاذا فقه هذا علم علم شهود انه لا يستغني طرفة عين عن توفيق الله وعنايته . (٢) هذا تفسير باللازم وأما الملزوم فكون الاسباب المكسوبة وغير المكسوبة موافقة للمصلحة الصحيحة

والخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك . فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له ، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه ، فان وفقه فبفضله ورحمته ، وإن خذله فبعدله وحكمته ، وهو المحمود على هذا وهذا ، له أتم حمد وأكمله ، ولم يمنع العبد شيئا هو له ، وإنما منعه ماهو مجرد فضله وعطائه ، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله . فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه ، علم ضرورته وحاجته الى التوفيق كلَّ نفس وكل لحظة وطرفة عين ، وان ايمانه وتوحيده بيده تعالى (١) ، لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده ، ولخرّت سماء إيمانه على الارض ، وان الممسك له من يمسك السماء ان تقع على الأرض الا بإذنه ، فهجّيرى قلبه (٢) ودأب لسانه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، يا مصرّف القلوب صرّف قلبي الى طاعتك » ودعواه « ياحي ياقيوم ، يا بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام ، لا إله الا أنت برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ولا إلى احد من خلقك » ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه ، كما يشهد ربوبيته وخلقه ، فيسأله توفيقه مسألة المضطر ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ويلقي نفسه بين يديه ، طريحا ببابه مستسلما له ، ناكس الرأس بين يديه خاضعا ذليلا مستكينا ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

والتوفيق ارادة الله من نفسه ان يفعل بعبده ما يصلح به العبد ، بأن يجعله قادرا على فعل ما يرضيه ، مريدا له ، محبا له ، مؤثرا له على غيره ، ويبغض اليه ما يسخطه ويكرهه اليه . وهذا مجرد فعله ، والعبد محل له ، قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ، وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك

---

(١) وفي النسخة الثانية « وتوحيده ممسك بيد غيره بيده تعالى » (٢) هجيرى الانسان (بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة والقصر) دأبه الذي يلازمه ولا يتركه . ويسميها الناس في بعض البلاد في هذا العصر « لازمة » فالذي يكثر في كلامه من كلمة « مثلا » يقولون : لازمته مثلا

هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له ، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله ، لا يمنعه أهله ، ولا يضعه عند غير أهله . وذكر هذا عقيب قوله (واعلموا أن فيكم رسولَ اللهِ لو يطيعكم في كثير من الامر لعَنِتّم) ثم جاء به (١) بحرف الاستدراك فقال (ولكن اللهَ حبب اليكم الإيمان) يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للايمان وارادته وتزيينه في قلوبكم منكم ، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك فآثرتموه ورضيتموه ، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي ، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمره فالذي حبب اليكم الايمان أعلم بمصالح عباده منكم ، وأنتم فلولا توفيقه لكم (٢) لما أذعنت نفوسكم للايمان ، فلم يكن الايمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ، ولا تقدمتم به اليها ، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه ، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك ، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وانتم لا تشعرون ، ولا تظنوا ان نفوسكم تزيد بكم الرشد والصلاح ، كما اردتم الايمان ، فلولا اني حببته اليكم وزينته في قلوبكم ، وكرهت اليكم ضده ، لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم .

وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل ملك أرسل الى أهل بلد من بلاده رسولا وكتب معه (٣) كتابا يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب ، ومجتاحهم ومخرب البلد ومهلك من فيها ، وأرسل اليهم اموالا ومراكب وزادا وعدة وأدلة ، وقال : ارتحلوا الي مع هؤلاء الادلة ، وقد ارسلت اليكم جميع ما تحتاجون اليه . ثم قال لجماعة من مماليكه : اذهبوا الى فلان فخذوا بيده واحملوه (٤) ولا تذروه يقعد ، واذهبوا الى فلان كذلك والى فلان ، وذروا من عداهم فانهم لا يصلحون ان يساكنوني في بلدي . فذهب خواص مماليكه الى من أمروا بحملهم فلم يتركوهم يقرون ، بل حملوهم حملا وساقوهم سوقا الى الملك ، فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم ، واسر من اسر . فهل يعد الملك ظالما لهؤلاء أم عادلا فيهم ؟ نعم خص أولئك باحسانه وعنايته وحرمها من عداهم ، اذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله واكرامه ، بل ذلك فضله

(١) سقط من النسخة الثانية لفظ « به » (٢) سقط من النسخة الثانية لفظ «لكم» (٣) وفي نسخة « له » (٤) وفي نسخة « فاحملوه »

يؤتيه من يشاء .

وقد فسرت القدرية الجبرية التوفيق بانه خلق الطاعة ، والخذلان (بأنه) خلق المعصية . ولكن بنوا ذلك على اصولهم الفاسدة من انكار الأسباب والحكم ، وردوا الامر الى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة . وقابلهم القدرية النفاة ، ففسروا التوفيق بالبيان العام ، والهدي العام ، والتمكن من الطاعة والاقبال عليها وتهيئة أسبابها . وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة وتمكن من الايمان . فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين ، إذ الاقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين (١) ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الايمان منهم ، والكفار بخذلان امتنع به الايمان منهم ، ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما . والتزموا لهذا الاصل لوازم قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء ولم يجدوا بدا من التزامها ، فظهر فساد مذهبهم ، وتناقض أقوالهم (٢) ، لمن أحاط به علما وتصوره حق تصوره ، وعلم أنه من أبطل مذهب (؟) في العالم وارداه .

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . فلم يرضوا بطريق هؤلاء ولا طريق هؤلاء ، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم ، فأثبتوا القضاء والقدر وعموم مشيئة الله للكائنات وأثبتوا الاسباب والحكم والغايات والمصالح ، ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء ، أو أن يقدر خلقه على مالا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته ، أو أن يكون شيء من أفعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته . ومن قال ذلك فلم يعرف ربه ، ولم يثبت له كمال الربوبية . ونزهوه مع ذلك عن العبث وفعل القبيح وأن يخلق شيئا سدى ، وان يخلو أفعاله عن حكم بالغة لأجلها أوجدها ، واسباب بها سببها ، وغايات جعلت طرقا ووسائل اليها . وان له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة . وتلك الحكمة صفة له قائمة به ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة .

فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين ، الا من حق تضمنه مقالاتهم ،

(١) وفي نسخة « بين الفريقين » (٢) وفي نسخة « قولهم »

فانهم يوافقونهم عليه ويجحدون حق كل منهما الى حق الاخرى ، ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل ، فهم شهداء الله على الطوائف أمناء عليهم ، حكام بينهم ، حاكمون عليهم ، ولا يحكم عليهم احد منهم ، يكشفون أحوال الطوائف ، ولا يكشفهم الا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول (١) وعرف الفرق بينه وبين غيره ولم يلتبس عليه ، وهؤلاء افراد العالم ونخبته وخلاصته ، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، بل ممن هو على بينة من ربه وبصيرة في إيمانه ، ومعرفة بما عند الناس ، والله الموفق .

﴿ فصل ﴾

المشهد الثامن مشهد الاسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد وهو أعلى مما قبله وأوسع . والمطلع (٢) على هذا المشهد معرفة تعلق الوجود خلقا وامرا بالاسماء الحسنى ، والصفات العلى ، وارتباطه بها ، وان كان العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها . وهذا من أجل المعارف وأشرفها ، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة ، فان أسماءه أوصاف مدح وكمال ، وكل صفة لها مقتض ، وفعل : إما لازم وإما متعد ، ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه وهذا . في خلقه وأمره وثوابه وعقابه ، كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها . ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، وتعطيل الاوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الافعال ، وتعطيل الافعال عن المفعولات ، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله ، وأفعاله عن صفاته ، وصفاته عن أسمائه ، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته .

واذا كانت أوصافه صفات كمال ، وأفعاله حكما ومصالح ، واسماؤه حسنى ، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه . ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وانه نسبه الى ما لا يليق به ، وينزه عنه (٣) وان

---

(١) وفي نسخة الرسل (٢) المطلع بفتح اللام . وخبره معرفة تعلق الوجود
(٣) وفي نسخة : بل ينزه عنه

ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه ، وان من نسبه الى ذلك فما قدره حق قدره ، ولا عظمه حق تعظيمه ، كما قال تعالى في حق منكري النبوة وارسال الرسل وانزال الكتب (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين كالأبرار والفجار ، والمؤمنين والكفار (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) فأخبر ان هذا حكم سيئ لا يليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته ، وقال سبحانه (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟ * فتعالى الله الملك الحق لا إله الا هو رب العرش الكريم) عن هذا الظن والحسبان ، الذي تأباه اسماؤه وصفاته .

ونظائر هذا في القرآن كثير ، ينفي عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته ، اذ ذلك (١) مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها ، فاسمه الحميد المجيد يمنع ترك الانسان سدى مهملا معطلا ، لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب ، وكذلك اسمه الحكيم ، يأبى ذلك ، وكذلك اسمه الملك ، واسمه الحيّ يمنع أن يكون معطلا من الفعل بل حقيقة الحياة الفعل ، فكل حي فعّال ، وكونه سبحانه خالقا قيوما من موجبات حياته ومقتضياتها ، واسمه السميع البصير يوجب مسموعا ومرئيا ، واسمه الخالق يقتضي مخلوقا . وكذلك الرزاق . واسمه الملك يقتضي مملكة وتصرفا وتدبيرا واعطاء ومنعا وإحسانا وعدلا وثوابا وعقابا . واسم البر المحسن المعطي المنان ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها .

اذا عرف هذا فمن اسمائه سبحانه الغفار التواب العفوّ (٢) فلابد لهذه الاسماء من متعلقات ، ولابد من جناية تغفر ، وتوبة تقبل ، وجرائم يعفى عنها . ولا بد لاسمه الحكيم من متعلق يظهر فيه حكمه (٣) اذ اقتضاء هذه الاسماء لآثارها

(١) ونسخة « ذاك » (٢) وفي نسخة بواو العطف في هذه الاسماء الثلاثة الاخيرة . وهنا محل الشاهد (٣) وفي نسخة « حكمة »

كاقتضاء اسم الخالق الرازق المعطي المانع المخلوق والمرزوق والمعطى والممنوع وهذه الاسماء كلها حسنى ، والرب تعالى يحب ذاته واوصافه واسماءه . فهو عفو يحبّ العفو ، ويحب المغفرة ويحب التوبة ، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب اليه أعظم فرح يخطر بالبال ، وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله ويحلم عنه ويتوب عليه ويسامحه من موجب اسمائه وصفاته ، وحصول مايحبه ويرضاه من ذلك ، ومايحمدُ به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه ، ماهو من موجبات كماله ومقتضى حمده . وهو سبحانه الحميد المجيد ، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما ومن آثارهما مغفرة الزلات ، واقالة العثرات ، والعفو عن السيئات ، والمسامحة على الجنايات ، هذا (١) مع كمال القدرة على استيفاء الحق ، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها ، فحلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته ، كما قال المسيح صلى الله عليه وسلم (إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك ، لست كمن يغفر عجزا ، ويسامح جهلا بقدر الحق ، بل أنت عليم بحقك ، قادر على استيفائه ، حكيم في الأخذ به .

فمن تأمل سريان آثار الاسماء والصفات في العالم وفي الامر تبين له ان مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد ، وتقديرها هو من كمال الاسماء والصفات والافعال ، وغاياتها أيضا مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته ، فله في كل ماقضاه وقدره الحكمة البالغة ، والآيات الباهرة ، والتعرفات الى عباده باسمائه وصفاته ، واستدعاء محبتهم له وذكرهم له وشكرهم له ، وتعبدهم له باسمائه الحسنى ، اذ كل اسم فله تعبد مختص به علما ومعرفة وحالا ، وا كمل الناس عبودية المتعبد بجميع الاسماء والصفات التي يطلع عليها البشر ، فلا يحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير ، عن التعبد باسمه الحكيم الرحيم ، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي من عبودية اسمه المانع ، أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم ، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والاحسان

(١) سقط لفظ «هذا» من النسخة الثانية

عن اسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء ونحو ذلك .

وهذه طريقة الكمل من السائرين الى الله ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) والدعاء بها يتناول دعاء المسئلة ودعاء الثناء ودعاء التعبد . وهو سبحانه يدعو عباده الى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها ، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته . فهو عليم يحب كل عليم ، وجوادٌ يحب كل جواد ، وترٌ يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، عفو يحب العفو وأهله ، حيي يحب الحياء وأهله ، برٌّ يحب الأبرار ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين ، حليم يحب أهل الحلم ، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه ، وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له ، فتوسطه كتوسط الاسباب المكروهة المفضية الى المحبوب .

فربما كان مكروه النفوس الى محبوبها سببا ما مثله سبب

والاسباب مع مسبباتها أربعة أنواع : محبوب يفضي الى محبوب ، ومكروه يفضي الى محبوب . وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة الى ما يحبه ويكرهه . والثالث مكروه يفضي الى مكروه . والرابع محبوب يفضي الى مكروه . وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه ، اذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره ـ الذي خلق ما خلق وقضى ما قضى لأجل حصولها ـ لا تكون الا محبوبة للرب مرضية له ، والاسباب الموصلة اليها منقسمة الى محبوب له ومكروه له . فالطاعات والتوحيد أسباب محبوبة له موصلة الى الاحسان والثواب المحبوب له أيضا ، والشرك والمعاصي أسباب مسخوطة له ، موصلة الى العدل المحبوب له ، وان كان الفضل أحب اليه من العدل . فاجتماع العدل والفضل أحب اليه من انفراد أحدهما ، لما فيهما من كمال الملك والحمد ، وتنوع الثناء وكمال القدرة .

فان قيل : كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه . قيل هذا سؤال باطل لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والذي يقدّر الذهن وجوده شيئا آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب ، وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم

بلا علم ، بل قد يكون مبغوضا للرب تعالى لمنافاته حكمته ، فاذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له كان نسبة له الى ما لا يليق به وتعالى عنه . فليمط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل فانه مزلة اقدام ، ومضلة افهام ، ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف . وهذا المشهد أجل من ان يحيط به كتاب ، أو يستوعبه خطاب ، وانما أشرنا منه الى أدنى اشارة تطلع على ماوراءها والله الموفق (١) .

﴿ فصل ﴾

المشهد التاسع مشهد زيادة الايمان وتعدد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد وأخصها بأهل المعرفة . ولعل سامعه يبادر الى انكاره ويقول : كيف يشهد زيادة الايمان من الذنوب والمعاصي ؟ ولا سيما ذنوب (٢) العبد ومعاصيه ، وهل ذلك إلا منقص للايمان ؟ فانه باجماع السلف يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . فاعلم ان هذا حاصل من النفات العارف الى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره ، والى ترتب آثارها عليها . وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة ، وبرهان من براهين صدق الرسل وصحة ما جاءوا به . فان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم ، ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد ، وأخبروهم عن الله عز وجل انه يحب كذا وكذا (٣) وانه يبغض كيت وكيت ، ويعاقب عليه بكيت وكيت ، وانه اذا أطيع بما أمر به شكر عليه بالإمداد ، والزيادة والنمو في القلوب والابدان والاموال ، وَوَجَدَ العبد زيادته وقوته في حاله كلها ، وانه اذا خولف أمره ونهيه ترتب عليه من النقص والفساد والضعف والذل والمهانة والحقارة وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب ، كما قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (قل : يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة والدار الآخرة خير) وقال تعالى (وأن استغفروا ربكم

(١) وفي نسخة زيادة «المعين» (٢) وفي نسخة «من ذنوب» (٣) وفي نسخة زيادة «فيثيب عليه»

ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى، ويؤت كل ذي فضل فضله) وقال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، والصحيح انها في الدنيا وفي البرزخ فان من أعرض عن ذكره الذي أنزله فله من ضيق الصدر ونكد العيش وكثرة الخوف وشدة الحرص والتعب على الدنيا والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك - ما لا يشعر به القلب لسكرته وانغماسه في السكر. فهو لا يصحو ساعة الا أحس وشعر بهذا الألم فبادر الى ازالته بسكر ثان، فهو هكذا مدة حياته. وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟ فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الكبرى، وقلوب الابرار في نعيم قبل النعيم الاكبر (ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) هذا في دورهم الثلاث ليس مختصا بالدار الآخرة، وان كان تمامه وكماله وظهوره انما هو في الدار الآخرة (١) وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى (وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك) وقال تعالى (ويقولون: متى هذا الوعد ان كنتم صادقين؟ * قل: عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) وفي هذه الدار دون ما في البرزخ، ولكن يمنع من (٢) الإحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب وعدم التفكر فيه. والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه ويقطع التفاته عنه، ويجعل اقباله على غيره لئلا يشعر به جملة، فلو زال عنه ذلك الالتفات لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارا محبوبة لذيذة طيبة لذتها فوق لذة المعصية باضعاف مضاعفة لا نسبة لها اليها، وجعل للسيئات والمعاصي آلاما وآثارا مكروهة، وحزازات تربي على لذة تناولها باضعاف مضاعفة. قال ابن عباس: ان للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وان للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القلب، ووهنا في البدن،

(١) ما رأيت أحدا سبقني الى تقرير هذا المعنى والاستدلال عليه بالقرآن مثل المصنف
(٢) وفي نسخة بسقوط «من»

ونقصا في الرزق ، و بغضة في قلوب الخلق . وهذا يعرفه صاحب البصيرة و يشهده من نفسه ومن غيره، فما حصل للعبد حال مكروهة قط الا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر . قال الله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير) وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقال (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والمراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله . ولهذا قال « ما اصابك » ولم يقل : ما أصبت. فكل نقص و بلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب ، فليس في العالم شر قط الا الذنوب وموجباتها

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والابدان والاموال امر مشهود في العالم ، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته مما يقوي ايمانه بما جاءت به الرسل ، و بالثواب والعقاب، فان هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم ، ومثوبات وعقوبات عاجلة دالة على ماهو اعظم منها لمن كانت له بصيرة ، كما قال بعض الناس : اذا صدر مني ذنب ولم ابادره ولم اتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيء ، فاذا اصابني اوفوقه اودونه كما حسبت ، يكون هجيراي « اشهد ان لا إله إلا الله، واشهد ان محمدا رسول الله» ويكون ذلك من شواهد الايمان وادلته، فان الصادق في اخبرك انك اذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا، فجعلت كلما فعلت شيئا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد الا علما بصدقه و بصيرة فيه ، وليس هذا لكل احد ، بل اكثر الناس يرين الذنوب على قلبه فلا يشهد شيئا من ذلك ولا يشعر به البتة . وانما يكون هذا لقلب فيه نور الايمان ، واهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه ، فهو يشاهد هذا وهذا ، ويرى حال مصباح ايمانه مع قوة تلك الاهوية والرياح، فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح وتقلب السفينة وتكفئها ، ولا سيما اذا انكسرت به و بقي على لوح تلعب به الرياح ، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب ، اذا أريد به الخير ، وان أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر .

ومتى انفتح هذا الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم واحوال الامم ، وماجريات الخلق ، بل انتفع بما جريات اهل زمانه وما يشاهده من احوال الناس ، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقوله (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا اله الا هو العزيز الحكيم) فكلما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة وجدب ونقص في نفسك وفي غيرك فهو من قيام الرب تعالى بالقسط ، وهو عدل الله وقسطه ، وان اجراه على يد ظالم فالمسلط له اعدل العادلين ، كما قال تعالى لمن افسد في الارض (بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار) الآية . فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات ، فان تداركها من سقي بالادوية المقاومة لها ... ، والا قهرت القوة الايمانية وكان الهلاك ، كما قال بعض السلف : المعاصي بريد الكفر كما ان الحمى بريد الموت فشهود العبد نقص حاله اذا عصى ربه ، وتغير القلوب عليه وجفوها منه ، وانسداد الابواب في وجهه ، وتوعر المسالك عليه وهوانه على اهل بيته واولاده وزوجته واخوانه (١) وتطلبه ذلك حتى يعلم من اين أتي ، ووقوعه على السبب الموجب لذلك مما يقوي ايمانه . فان اقلع وباشر الاسباب التي تفضي به الى ضد هذه الحال ، ورأى العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والسرور بعد الحزن ، والامن بعد الخوف ، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه ازداد ايمانا مع ايمانه ، فتقوى شواهد الايمان في قلبه وبراهينه وادلته في حال معصيته وطاعته ، فهذا من الذين (يكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم اجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه واعطاه حقه صار من اطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها ، فنفعه الله في نفسه

(١) هذه الآثار التي تترتب على الذنب لا يشهدها كلها الا المؤمن الذي يعيش بين المؤمنين الصادقين . واما الجاحدون والمنافقون والفاسقون المصرون ، فلا تتغير قلوب بعضهم على بعض لاجل المعصية ، ولا يشعرون بهوانهم على اهل بيوتهم ، الا قليلا وفي بعض المعاصي دون بعض . فالذين اعتادوا شرب الخمر في بيوتهم ، وغير بيوتهم يعدونها هم واهلوهم كشرب الماء . وللمعاصي آثار أخرى في الاخلاق وفي الصحة لا يغفل عن قبحها وشؤمها الا من هو اجهل من الانعام

ونفع به من شاء من خلقه ، والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

المشهد العاشر مشهد الرحمة

فان العبد اذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة ، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب ، حتى لو قدر عليه لاهلكه ، وربما دعا الله عليه ان يهلكه ويأخذه غضبا منه لله وحرصا على ان لا يعصى ، فلا يجد في قلبه رحمة المذنبين الخاطئين ولا يراهم الا بعين الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم الا بلسان الطعن فيهم والعيب لهم والذم ، فاذا جرت عليه المقادير وخلي ونفسه استغاث بالله والتجأ اليه ، وتذلل بين يديه تذلل السليم ، ودعاه دعاء المضطر ، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة ، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولينا ، مع قيامه بحدود الله ، وتبدل دعاؤه عليهم دعاءً لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره — يسأل الله فيه ان يغفر لهم ، فما انفعه له من مشهد ! وما اعظم جدواه عليه ! والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

فيورثه ذلك (المشهد الحادي عشر)

وهو مشهد العجز والضعف ، وانه اعجز شيء عن حفظ نفسه واصلاحه ، وانه لا قوة له ولا قدرة ولا حول الا بربه ، فيشهد قلبه كريشة ملقاة بارض فلاة تقلبها الرياح يمينا وشمالا ، ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح ، وتتلاعب بها الامواج ، ترفعها تارة وتخفضها تارة أخرى تجري عليه احكام القدر وهو كالآلة طريحا بين يدي وليه ملقى ببابه ، واضعا خده على ثرى اعتابه ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ليس له من نفسه الا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما ، فالملاك ادنى اليه من شراك نعله ، كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع لا يردهم عنها الا الراعي ، فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها اعضاءا . هكذا حال العبد ملقى بين الله وبين اعدائه من شياطين الانس والجن ، فان حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا اليه سبيلا ، إن تخلى عنه ووكله الى نفسه طرفة عين لم ينقسم

عليهم بل هو نصيب من ظفر به منهم .

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقا ، ويعرف ربه ، وهذا احد التأويلات الكلام المشهور « من عرف نفسه عرف ربه » وليس هذا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما هو اثر اسرائيلي بغير هذا اللفظ ايضا « يا انسان اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاث تأويلات (احدها) ان من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة ، ومن عرفها بالذل ، عرف ربه بالعز ، ومن عرفها بالجهل ، عرف ربه بالعلم ، فان الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق والحمد والثناء والمجد والغنى ، والعبد فقير ناقص محتاج ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ، ازدادت معرفته لربه باوصاف كماله .

(التأويل الثاني) ان من نظر الى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والارادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف ان من اعطاه ذلك وخلقه فيه اولى به ، فمعطي الكمال أحق بالكمال ، فكيف يكون العبد حيا متكلما سميعا بصيرا مريدا عالما يفعل باختياره ، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه ؟ . فهذا من أعظم المحال ، بل من جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ، ومن جعله حيا عليما سميعا بصيرا فاعلا قادرا ، أولى أن يكون كذلك . فالتأويل الاول من باب الضد . وهذا من باب الاولوية .

(والتأويل الثالث) ان هذا من باب النفي . أي كما انك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الاشياء اليك ، فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها ، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته ؟ . والمقصود أن في هذا المشهد يعرف العبد أنه عاجز ضعيف ، فيزول عنه رعونات الدعاوي والاضافات الى نفسه ، ويعلم انه ليس له من الامر شيء وليس بيده شيء ، وان هو الا محض الفقر والعجز والضعف .

(للبحث بقية)